

أبعد الليلة من البارحة» ... إلا أنه حين يتحدث في بقية الفصول عما أصاب العرب ، في المساضي أمام الأفرنج وفي الحاضر أمام الغزوة الصهيونية، من هزائم واغتصاب وعدوان واذلال ، فإنه يؤكد في ذيل كل فصل أن التاريخ يعيد نفسه ، و« ما أشبه الليلة بالبارحة » ، ذلك أن العلة واحدة هي الماضي كما في الحاضر ، أنها التجزئة لا غير .

نعم ، أن التاريخ في نظر الكاتب يعيد نفسه ويكررها في هذه المنطقة بصورة تلامس التطبيق . وفيما يتعلق بالغزوتين المذكورتين للوطن العربي، غزوة الأفرنج وغزوة الصهاينة ، أن الأسباب هي هي ، والنتائج هي هي ، وطريق الخلاص هو هو: « فالدين اتخذ ستارا وشعارا في الحملتين، ففي الأولى كان الصليب هو الشعار ، وفي الثانية كان الشعار هو نجمة داود ... وكان الهدف الظاهر في الأولى « انتقاد القبر المقدس » ، وفي الثانية كان الهدف « إعادة بناء هيكل سليمان». ولكن الواقع الذي لا مراء فيه — يضيف المؤلف — أن الحملة الصليبية كانت مجرد غزوة استعمارية استيطانية كالغزوة الصهيونية المعامرة سواء بسواء ... ويسوق الكاتب الأمثلة والأدلة من بطون الكتب التاريخية ، وكذلك من مطالعة الواقع الحالي ، ليثبت « أن الدين الحق براء من الحملتين » ، وأن « الحملة الصليبية في العصور الوسطى تكاد أن تكون متشابهة بل متطابقة مع الحملة الصهيونية في العصر الحديث » .

بناء لما قلناه سابقا ( الحاشية رقم ٢ ) من ضرورة التمييز بين التاريخ وبين الكتابة السياسية، لا نرى داعيا لإلغاء نظرة تقويمية على الكتاب من زاوية تاريخية ، ومع ذلك فلا بأس من استعراض ماير لحجريات التطورات التي يرافقتها المؤلف . أنه كما قلنا يبدأ باقتحام الأفرنج لانتطاكية في ١٠٩٨ (٤) بينما كان حكام بغداد العباسيون وحكام دمشق السلاجقة وحكام القاهرة الفاطميون لا مجالين ولا محترئين ، وبينما كانت حرب «عربية» تدور بين ملك دمشق وشقيقه ملك حلب ! كانت التجزئة هي خريطة المنطقة : إمارة في انتطاكية ومملكة في حلب ومملكة في دمشق وإمارة في حمص وإمارة في الموصل وإمارة في حماه وإمارة في حصن عزاز . ذلك كله في ديار الشام ، وفي غيرها خلافة فاطمية شيعية في القاهرة ، وخطانة عباسية

وهذه الفكرة بالذات ، بشأن الوحدة والتجزئة، هي مفتاح الكتاب كله . ذلك أن الفصول الخمسة عشر النباتية كان يمكن أن يكون عنوانها « نمر مع الوحدة ، وهزيمة مع التجزئة » . والكاتب يتناول — كما قلنا — حملات الأفرنج ، مبتدئا بلحظة اقتحامهم للوطن العربي عن طريق بوابته الشمالية .. انتطاكية في تشرين الأول ١٠٩٨ ، ويقلب صفحات هذه المرحلة الفاصلة في تاريخ العرب ليستخرج منها درسا يكرره بالحاح مستديم: حيثما تكون وحدة يكون انتصار ، وفي أية معركة خاسرة تنتش عن التجزئة والانفصال . وهو في الحالي يختم الفصل بالعبارة التلخيصية ، فإذا كانت الواقعة المقصودة في حملات الأفرنج ومعارك العرب معهم ، انتهت بهزيمة للعرب واحتلال لديارهم ، جاء بما يقابل الواقعة من معارك العرب الخاسرة في أطمار قضية فلسطين المعاصرة ، ليقول بعند « ومسا أشبه الليلة بالبارحة » ! وإذا كانت الواقعة تمثل نعرا مظهرنا حقتة العرب على الأفرنج بفضل وحدتهم وتماسكهم وشجاعة قيادتهم وحكمتها ، جاء بواقعة من حاضر العرب — وهو حاضر الخذلان والاحتلال والتجزئة — ليقول في نهاية الفصل « وما أبعد الليلة من البارحة » ! وأن مقصد الكاتب في الحالي واحد وثابت ، وهو البرهنة سواء بالأدلة التاريخية أو بالقرائن المعاصرة ، على أن الوحدة هي طريق القوة والانتصار وتحرير الأرض وعلو الشأن ، وأن التجزئة والتنسخ والتعدد القيادي وتناؤد الحكام واستبداد الزعماء ، طريق المهانة وضياع الحقوق والتبكين للغزاة واحتلال ديار العرب .

حين يقارن المؤلف بين قيادة صلاح الدين الأيوبي الموحدة ، وبين الأوضاع القيادية الراهنة، وكذلك حين يقارن بين موقف صلاح الدين من القدس وإصراره الجبار على تحريرها ، ورفضه مساومة الأفرنج على أي مقدار من السيادة عليها ، وبين بعض المواقف المطروحة في الساحة العربية الراهنة ، وكذلك حين يقارن بين دولة الوحدة التي هزمت الأفرنج في ديباط (١٢١٨ — ١٢٢١م)، وبين دول التجزئة الآن حيث يختم جواز سفر المواطن العربي بعبارة « ممنوع العمل بأجر وبدون أجر » ، في جميع هذه الحالات ينبغي أن نتوقع خلوص المتارنة الى عبارة الكاتب الجاهزة « وما